

الحجاج في التداولية اللسانية

الأستاذ: بن الدين بخولة

دراسات عليا جامعة وهران

جاءت اللسانيات التداولية لتعاجل في مقابل ذلك ما يسمى "لسانيات الاستعمال"⁽¹⁾، حيث تدرس اللغة أثناء استعمالها في المقامات المختلفة، وبحسب أغراض المتكلمين أحوال المخاطبين، فالتداولية إذن علم تواصلي يعالج كثيرا من ظواهر اللغة ويفسرها، ويسهم في حل مشاكل التواصل ومعوقاته، فهي مجال رحب يستمد معارفه من مشارب مختلفة، كعلم الاجتماع، وعلم النفس المعرفي، وعلم الاتصال والفلسفة التحليلية⁽²⁾. ومن المهام التي تكفلت بها التداولية:

- دراسة استعمال اللغة بدل دراسة اللغة؛ إذ اهتمت اللسانيات بالدراسة الثانية؛ أي دراسة المستويات الصوتية والتركيبية الدلالية، وتجاوزت التداولية ذلك إلى أحوال الاستعمال في الطبقات المقامية المختلفة؛ أي باعتبارها كلاما صادرا من متكلم محدد وموجها إلى خطاب محدد، بلفظ محدد في مقام تواصلي محدد⁽³⁾. تسعى التداولية إلى استخلاص العمليات التي تمكن الكلام من التجذر في إطاره الذي يشكل الثلاثية (المرسل - المتلقي - والوظيفة التبليغية)؛ لأن أي تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسياق الذي تؤول فيه الجملة.

علاقة التداولية بالحجاج:

عرف الحجاج في العصر الحديث مفهوما أدق، وأوضح، وأعمق من المفاهيم السابقة "ذلك أن الحجاج قد أخذ شيئا في الاستواء مبحثا فلسفيا، ولغويا قائم الذات.. مستقلا عن صناعة الجدل من ناحية وعن صناعة الخطابة من ناحية ثانية"⁽⁴⁾.

تطلق لفظة حجاج ومحاججة Argumentation عند بريلمان وتيتيكاه على العلم وموضوعه، ومؤداها درس تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم⁽⁵⁾ وربما كانت وظيفته محاولة جعل العقل يدعن لما يطرح عليه من أفكار، أو

الحجاج في التداولية اللسانية

يزيد في درجة ذلك الإذعان إلى درجة تبعث على العمل المطلوب⁽⁶⁾ على أن الحجاج مثلما أنه ليس موضوعياً محضاً فإنه ليس ذاتياً محضاً؛ ذلك أن من مقوماته حرية الاختيار على أساس عقلي، وعلى صعيد آخر يمكن القول بأن الحجاج في ارتباطه بالمتلقي يؤدي إلى حصول عمل ما أو الإعداد له، ومن ثم سيكون فحص الخطابات الحجاجية المختلفة بحثاً في صميم الأفعال الكلامية وأغراضها السياقية، وعلاقة الترابط بين الأقوال والتي تنتمي إلى البنية اللغوية الحجاجية⁽⁷⁾ وسيكون الحجاج مؤطراً بالخاصية اللسانية الشكلية، وليس بالمحتوى الخبري للقول الذي يربط القول بالمقام، ولما كان الأمر كذلك فإن تركيز التداولية ينصب على العلاقات الترابطية بين أجزاء الخطاب والأدوات اللسانية المحققة له، ومن خصائص الخطاب الحجاجي الذي يميزه عن البرهان أو الاستنتاج إمكان النقض أو الدحض مما يجعل من إمكانية التسليم بالمقدمة المعطاة أمراً نسبياً بالنسبة إلى المخاطب. وتتصدر المحاجة كوظيفة لسانية قائمة الوظائف اللغوية رغم عدم إشارة الدارسين الذين تناولوا موضوع وظيفة اللغة لها كبوهار وجاكسون وغيرهما.. الخ.

عرف الحجاج تعريفات متباينة تباينا كبيراً؛ لتشعب مجالاته وتعدد استعمالاته واختلاف مرجعيته، بحيث يستمد مرجعية خطابية محددة ومن خصوصية الحقل التواصلية الذي يتناسب واستراتيجياته، إذ حصر بعض البحوث الحجاج في أنواع ثلاثة: الخطاب الحجاجي الفلسفي، الحجاج الخطابي البلاغي، الحجاج الخطابي التداولي، وتختلف هذه الخطابات باختلاف أصولها وامتداداتها المعرفية والمنهجية، إلا أن ذلك لا يمنع من تداخلها. من مميزات الخطاب الحجاجي: التأثير والإقناع، وهو ركيزة النصوص الموجهة المتضمنة للقصدية والنقاش والجدل، ومن ذلك النص القرآني.

إن دراسة النص الحجاجي ليست بدعاً بل عرفت عند اليونان في فن الخطابة، مروراً بالعرب انتهاء إلى الإرث الفكري الضخم الذي أحاط بكل ما يمكن أن يطرأ على النص من خلال تطبيقات كبار المفكرين والفلاسفة والفقهاء على مختلف النصوص. فقد استعمل الحجاج في القرآن بدلالة مفردات تجمعها علاقة الترادف والتقابل متناثرة في غير ما آية من ذلك:

الجدل: يقول تعالى: ﴿... وَجَادُهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل/125].

المخاصمة: يقول تعالى: ﴿... ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر/ 31].

المنازعة: ﴿... حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ...﴾ [آل عمران/ 152].

المحاور: ﴿... فَقَالَ لَصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ...﴾ [الكهف/ 34].

الممارسة: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر/ 63].

الاختلاف: ﴿... إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس/ 09].

التداولية منهج في دراسة اللغة له أسسه ومفاهيمه، تكون ضرورة في كل تحليل لغوي، تهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالسياق المرجعي لعملية التخاطب وبالأفراد الذين تجري بينهم تلك العملية التواصلية⁽⁸⁾ فهي إذا منهج من المناهج الحديثة في تحليل الخطاب. والتداولية هذا تقف على أغراض القائل المقامية، لتبين الإستراتيجية الخطابية لعالم النص، بحيث تنظر إلى الأقوال على جهة العمل من ثلاثة مستويات:

(1) مستوى العمل اللغوي.

(2) مستوى العمل المتضمن في اللغة.

(3) مستوى العمل القائم في أثر القول؛ حيث يقول أحد الباحثين الغربيين: "... كل فعل كلامي هو تحقيقي لذاته ولمجرد كونه إنتاجا كلامياً، في حين أن القيمة التأثيرية تختص بتحقيق موقف ملموس تحقيقاً فعلياً بواسطة المتكلم وحده"⁽⁹⁾.

يقول صالح الدين صالح حسنين: "التداولية تدرس كيف نحدد معنى الكلام المنطوق، في موقف محدد أو في مقام محدد، هذا يعني أن التداولية، تدرس اللغة باعتبارها نظام اتصال، أي أنها تدرس اللغة دراسة وظيفية، فتجمع إلى جانب النحو، وهو الذي يمثل الدراسة الشكلية للغة، التداولية وهي التي تمثل الجانب الوظيفي للغة، أي تدرس الإحالة والمعلومات الإخبارية التي تتضمنها الجملة والقوة الانجازية للجملة". والتداولية باعتبارها تسعى إلى تحقيق نفسها كنظرية ذات خلفية تصويرية فكرية في مقارنة الخطاب، تساعد محلي الخطاب في الفهم الدقيق لمقصده التواصل المدججة في مختلف الأبعاد الإجرائية للتداولية⁽¹⁰⁾:

- مفهوم أفعال الكلامية: (الأفعال الانجازية).

الحجاج في التداولية اللسانية

- مفهوم السياق: (المتضمن لكل ما نحتاج إليه لفهم وتقييم الخطاب).

- مفهوم الكفاءة: (حصيلة إسقاط محور الفعل على محور السياق).

توازيا مع التداولية نجد أن الحجاج يعد من أبعاد الخطاب، وفعالية لسانية، وكل حجاج يستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة، ومن خصوصية الحقل التواصلية الذي يندمج في استراتيجياته الفردية والجماعية، ومن ذلك الحجاج اللساني والذي تدور في حلقتة التداولية، يرى الباحث حبيب أعراب أن الحجاج ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق، إذ إن كل خطاب حالة في اللغة تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج، أي الاستدلال والتدليل، والحجاج يخضع في دلالاته لما يميز ألفاظ اللغة الطبيعية من رخوة ومرونة تداولية⁽¹¹⁾. فالحجاج تقنية من تقنيات الخطاب، والخطاب مجال من مجالات التداولية. فالحجاج عملية اتصالية، وهي كل ضرب من ضروب غرض البرهان الذي يعلل الفرضيات والدوافع والاهتمامات⁽¹²⁾، فهو عملية بحيث حضور طرفي الاتصال أساسي، كما أنه نوع خاص من أنواع الخطاب.

ومن المفاهيم الإجرائية التداولية:

- مفهوم أفعال الكلام (الأفعال الانجازية)

- مفهوم السياق المتضمن (ما تحتاج إليه لفهم وتقييم الخطاب)

- مفهوم الكفاءة (حصيلة إسقاط محور الفعل على محور السياق)

يرى حسين أعراب أن الحجاج ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق، إذ أن كل خطاب في اللغة تمنحه هذه الأخيرة العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج ؛ أي الاستدلال والتدليل، والحجاج يخضع في دلالاته لما يميز ألفاظ اللغة من تقنيات الخطاب، والخطاب مجال من مجالات التداولية⁽¹³⁾. فالأصل في تكوثر الكلام هو صفته الخطابية بناء على أنه لا كلام بغير خطاب ؛ إذ حقل الحجاج هو الخطاب والأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية⁽¹⁴⁾ بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج ؛ إذ يوصف الحجاج بأنه كطبيعة في كل خطاب والأصل في الحجاج هو صفته المجازية، بناء على أنه لا حجاج بغير مجاز.

بن الدين بخولة

يقدم بيرلمان تعريفا للحجاج يذكر فيه وظيفته " هو حمل المتلقي على الاقتناع بما يعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقناع"⁽¹⁵⁾، وينزل الحجاج عند (ديكرو) وأتباعه في صميم المدرسة البراغمية، فبمقتضى انشغاله بوظائف الخطاب يصبح مفهوم التفاعل مؤسسا في أبحاث أصحابها؛ إذ في وضع معين يحدث الباث جملةً من الأعمال الإقناعية ذات طبيعة بلاغية معقدة تفعل في المتلقي الذي يُحدث بدوره جملة من الأعمال الأخرى، على هذا النحو أقرَّ (ديكرو) بسلطة الخطاب الحجاجي؛ فهو في نظره خطاب يسدّ المنافذ على أي حجاج مضاد فيحرص على توجيه المتلقي إلى وجهة واحدة دون سواها وبذلك تنتهي إلى ميزتين أساسيتين هما:

- التأكد على الوظيفة الحجاجية للبنى اللغوية

- إبراز السمة التوجيهية للخطاب⁽¹⁶⁾

فالحجاج بمعناه العام فعالية لغوية خطابية قائمة على قضايا من شأنها الإقناع والتأثير في نفس المتلقي، وهي ظاهرة ملازمة لإنتاج الخطاب عند البشر مذ كانوا، بيد أن الخطابات تتفاوت في الحجاجية، فنظرية الحجاج هي القاسم المشترك بين الجدل والخطابة، ويمكن وصف الحجاج بالحوار اللغوي القائم بذاته على الاستدلال البرهاني والحمل على الإقناع والتأثير.

والتداولية تهتم بجميع عناصر التواصل لأنها تدرس اللغة، وهي تؤدي وظيفتها التخاطبية مركزة على بحث التفاعل بين أطراف الخطاب المختلفة (المرسل - المرسل إليه - الرسالة - السياق) واللغة وسيلة تواصل تؤدي وظيفة حيوية في الربط بين أطراف النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلاقات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي يُنجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة ناجحة⁽¹⁷⁾.

فدراسة العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات يعني الجمع بين جانبيين اثنين هما: التواصل والتفاعل⁽¹⁸⁾. ويتم التفاعل عن طريق تبادل أطراف الحديث كالحوار مثلا أو السؤال والجواب وغيرهما من العمليات الكلامية التي تعبر عن التواصل، وإذا كان الكلام أصل كل تواصل وما يحدده هو العلاقة التخاطبية المبنية على قطبي التواصل (المرسل والمرسل إليه) فهو يقف على قصدين اثنين هما قصد التوجه به إلى الغير وقصد إفهامه، ولما كان الحجاج خطابا استدعى هدفه

الحجاج في التحاويل اللسانية

ذلك وجود قصدين حوارين هما قصد الادعاء وقصد الاعتراض، إذ يرتبط الادعاء بالمخاطب الذي يدعي أمراً ويستعد تمام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة، وأما قصد الاعتراض يرتبط بالمخاطب الذي له حق مطالبة المتكلم بإيراد الدليل على ادعائه ومن فقد هذا الحق فيكون إما دائم التسليم بما يدعيه المخاطب وأما عديم المشاركة في مدار الكلام⁽¹⁹⁾

وختاماً فإنّ الطرح اللساني التداولي للحجاج قدّ قواعده مجموعة من اللسانيين أبرزهم أروالد ديكر و **Oswald Ducrot** حيث يعد مشروع إحياء للبنىوية السوسورية في شكل جديد، حيث ينظر إلى فعل الحجاج على أنه فعل محدد بواسطة البنية اللسانية للملفوظات، وضمن العملية الحجاجية يكون استغلال محتمل لبنية دون أخرى، أو لصيغة أسلوبية دون أخرى.

فالمجتمعات الإنسانية تستعمل أساليب خطابية في الإقناع متعارف عليها لدى عامة الناس، معتقدين أنهم يمارسون استدلالاً منطقياً - أرسطية - في إثبات صحة دعوى ما أو تفنيدها، مغفلين أهم عامل في توجهاتهم الحجاجية ألا وهو ضابط اللغة، لأن اللغة بما تتميز به من طواعية الاستعمال وثناء أبنيتها في اعتقاد ديكر و هو الكفيل بجعلها محور الدراسة الحجاجية، فترابط الأقوال لا يستند إلى قواعد الاستدلال المنطقي وإنما هو ترابط حجاجي؛ لأنه مسجل في أبنية اللغة بصفته علاقات توجه القول وجهة دون أخرى، وتفرض ربطه بقول دون آخر، فموضوع الحجاج في اللغة هو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثل مكوناً أساسياً لا ينفصل عن معناه، يجعل المتكلم، في اللحظة التي يتكلم فيها، يوجه قوله وجهة حجاجية ما

مراجع البحث وإحالاته

- (1) - ينظر نعمان بوقرة، اللسانيات واتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث بداوا للكتاب العالمي، الأردن، ط1، 2009، ص160.
- (2) - ينظر المرجع نفسه، ص165، ومسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص17، ص26.
- (3) - ينظر طاهر بومزبر، التواصل اللساني والشعرية، مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكسون، ط1، منشورات الاختلاف، 2007، ص26.

- (4) - عبد الله صوله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفارابي، بيروت، 2007، ص2
- (5) - perelman et Tytica, traite de l'argumentation, p.05.
- (6) - Ibid, p682
- (7) - شكري المبخوت، الحجاج في اللغة، ضمن أعمال مخبر البلاغة والحجاج، جامعة منوبة، تونس، ص 352
- (8) - ينظر، د. نواري سعودي أبو زيد، تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراء)، ط: 01، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، 2009، ص: 18.
- (9) - جورج مولينيه، دراسة الأسلوب والبحث وأدوات الفن الأدبي، تر: د. بسام بركة، مجلة الفكر العربي، العدد: 94، السنة: 19، معهد الإنماء العربي، بيروت، لبنان، طرابلس، ليبيا، 1998، ص: 231، وينظر د. صلاح الدين صالح حسنين، الدلالة والنحو، ط: 01، مكتبة الآداب، القاهرة، 2005، ص: 187.
- (10) - ينظر، د. نواري سعودي أبو زيد، تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراء)، ص: 26-30
- (11) - ينظر، حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مجلة عالم الفكر، عدد: 08، مجلد: 30، يوليو سبتمبر، 2001، ص: 110/101.
- (12) - ينظر النص والخطاب والإجراء، تر: حسان تمام في فصل أنواع النصوص.
- (13) - ينظر، حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص101
- (14) - ينظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، الرباط، 1998، ص: 213.
- (15) - ينظر سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى ق2هـ، بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، ط1، 2001، ص، 21
- (16) - المصدر السابق، ص، 23
- (17) - مسعود صحراوي، الأفعال الكلامية عند الأصوليين، دراسة في ضوء اللسانيات التداولية، مجلة اللغة العربية، العدد10، الجزائر، 2004، ص، 181.
- (18) - طه عبد الرحمن، تحديد المنهج في تقديم التراث، المركز الثقافي العربي، بيروت: ط2، دت، ص، 224
- (19) - المرجع نفسه، ص، 225.